على الجبهة الثقافية

بقلم عبد اللطيف شرارة

يواجه النقاد في هذه الايام ، وفي ديارنا العربية خاصة ، عددا من المصاعب والمعضلات يتجاوز طافانهم بضخامته من جهة ، وما تحمل كل معضلة بمفردها من تعقيدات لا حصر لها ، من جهة أخرى .

وليس المراد بهذه الفئة - أعني فئة النقاد - جماعة معينة من « المحترفين » على الصعيدين الادبي والفني فحسب ، وانما أقصد هنا ، جميع هؤلاء الذين « ينتقدون » ولا يعملون في كل حقل ومجال، لا سيما في مجالات السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ، وتقييم الافراد والشعوب ، والحضارات على الاخص الاخص . فاذا أنت أخذت في تعداد هؤلاء اليوم ، وحشرتهم مع « الناقدين » ، أي حيث يضعون أنفسهم ، تسامحا منك أو تواضعا أو مداراة - ولك ان تختار واحدا من هذه البواعث الثلاثة - وجدت في نهاية المطاف ، انك أعجز من أن تمضي في التعداد الى غايته ، ثم وجدت أن التعداد نفسه أعجز من أن يستوعب تلك الفئة المنتشرة في طول العالم وعرضه ، مع انتشار الحزبيات ، والايديولوجيات ، والدعايات ، والمخابرات ، والاستخبارات من كل جنس ، ولون ، وملة ، وبلد !

ها نحن نصل من هذا الوضع الى الوقف نفسه الذي وصل اليه في ستينات القرن الماضي ناقد شهير ، ومفكر معروف ، هو ماثيو ارنولد الذي لم يكد يبلغ خاتمة العقد عام ١٨٦٩ ، حتى أصدر مجموعة محاضراته حول الثقافة بعنوان « الثقافة والفوضى » ، وطلع يومذاك على أناس عصره بهذه الفكرة ، وهي أن لا سبيل الى الخروج من مآزق العصر الا بتعميم الثقافة ، وبتسيير وسائل تفلغلها على أوسع مدى . وكان من رأيه أنه يجب الرجوع عن « العبرانية » التي سادت أيامه ، الى « الهلينية » . وذلك لان الاولى أبعد ما تكون عن الثقافة الحقيقية ، فان هذه لا تعدو أن تكون ، في جوهرها ، « نطفا ونورا » ، وليس لدى العبرانيين سوى العنف ، والكيد ، والنفعية ، والمضاربات المالية والسياسية .

ولا يحتاج المتأمل في حياة العصر ، الى كبير عناء ، ليدرك ان بلاء المجتمعات الحديثة ، يتلخص جملة وتفصيلا في هذه المساوىء الخلقية التي انقلبت بالعدوى من العبرانيين الى غيرهم من الشعوب التي اتصلوا بها ، وعلى الاخص في اميركا ، واوروبا .

وقد أخذت مسألة الثقافة تطرح نفسها من جديد على المعاصرين، في كل مكان من العالم ، على وجه التقريب ، حين فر في روعهم ان السبيل الوحيد الى التخلص من تلك المساوىء ، انما يكمن في بناء الانسان على أسس جديدة ، ورعاية حياته الفكرية والعاطفية والعملية، بحيث يتوجه نحو السلام ، وانصاف الآخرين ، والابتعاد عن التعرض لحقوقهم بما يسيء اليهم ، وبالتالي اليه ، ومكافحة العنصرية والاستعمار .

وتلك هي منطلقات الاونسكو ، وأغراضه المعلنة . وهي أبرز مثال على متجهات العصر ، في تطلعاته ، وآماله ، ونزعاته .

ذلك يرد قضيه الثقافة ، الى دائرتين : السياسة ، ثم الى التربية .

- ١ -

« السياسة تتبع خطى القانون » . ذلك هو المعروف من شأنها في هذا الزمن . وكانت في المحيط العربي - الاسلامي ، وهو المحيط الذي انبثقت منه حضارة الغرب الراهنة ، أو جاءت على اثره في الزمن ، كانت السياسة في ذلك المجتمع « تأتمر بأوامر الشريعة وتنتهي عن نواهيها » ، أو هكذا كان يفرض فيها أن تكون . وروح العبارتين واحدة ، وهي أن العمل السياسي مقيد ضمنا ، او بفرض فيه أن يتقيد بما يتواضع عليه المجتمع من قواعد السلوك العام ، وما تنطوي عليه هذه القواعد من قيم خلقية ومثل عليا انسانية . وكانت معايير النقد الاجتماعي والسياسي ، تجد جذورها في أوامر الشريعة ونواهيها ، ومنها تستمد قوتها ، وعليها يرتكز نظام الحياتين: الشخصية والعامة في اطار الثقافة الشائعة لدى العموم ، أي تلك المطلقة من كل نعت أو نسبة الى قوم أو بلد ، والمتمثلة في « اللطف والنور » كما يعبر ماتيو ارنولد . وكان يستحيل على الناس ان يجدوا في الغليظ الجافي من الرجال امرءا مثقفا ، أو يقروا للعنف والاحتيال والنفاق بقيمة ، تواريا خلف باع طويل في المعرفة ، وشهرة عريضة في الفيزياء والكيمياء مثلا او التبحر في التاريخ والفلسفة !

ولكن الجو الفكري العبراني الذي ساد أوروبا في القرن الماضي ، والذي يسود اميركا الشمالية اليوم ، استطاع - وهو جو بدائي لبه الجنس وقشره الارفاه والترف - أن يستغل القانون ويحتال عليه ، في الوقت نفسه الذي يسعى به في الداخل ، وراء تقويضه ، وافراغه من كل محتوى انساني يمكن أن يحمله ، ليضع محله محتوى عنصريا ، نفعيا ، سياسيا ، غير انساني ، في أي جانب من الجوانب .

لقد كانت « اسرائيل » حتى الى نصف قرن خلا ، « حلما » من الاحلام يراود نوعين من الاذهان في العالم : الذهن اليهودي المستغرق في التوراة ، ومآسي التوراة ، وظلمات التلمود ، وشرائع التلمود ، ثم الذهن الاستعماري الذي لا يشهد في العالم غير الاسواق ، والطرق التجارية ، والمواقع الاستراتيجية ، والمنازعات الدينية ، والخلافات المذهبية ، وصراع الطبقات الاجتماعية ، لينفذ من خلال هذه الابواب كلها الى السيطرة والتحكم .

وأتاحت التطورات التاريخية التي مرت بها كل من اوروبا واميركا لهذين الذهنين : اليهودي والاستعماري أن يأتلفا ، ويتعاونا، ويتضامنا - وتعاونهما في حقيقته الفاعلة ، ضرب من التآمر او التواطؤ - حتى انتقل الحلم الى واقع ، وتجسدت الفكرة في دولة .

ولكن ما من فكرة تتجسد الا وينطوي تجسدها على عناصر أصولها ، ومحتويات أصولها ، ولا يمكن ابدا للجسد هذا ان يحتفظ بحياته اذا هو نبذ أصله الفكري ، او انفض على الاساس الذي قام بنيانه فوقه ، أن في ذهنه ، وان في أذهان الآخرين .

لننظر الآن الى اسرائيل - الحلم ، كي نقارنه باسرائيل - الواقع : أول ما نجد ان الذهن الاسرائيلي الحقيقي ، الفاعل ، الذي يحمل في أقصى تلافيفه الدولة اليهودية الخالصة من كل شائبة غير يهودية ، عنصرا ودينا وثقافة وسياسة ، الممتدة من النيل الى الفرات ، بدأ ينفصل شيئا فشيئا ، عن الذهن الاستعماري الذي كان يجد ، ولا يزال على غفلته لدى كثيرين ، في اسرائيل - الحلم أداة استغلال ذاتي ، وسبيل منفعة قومية ، وتأمينا لمصلحة سياسية أو استراتيجية . وهذا « الانفصال » بين الذهنين الذي توفعه « مهندسو » اسرائيل ، واحتاطوا له أشد الاحتياط ، قدر لا محيص منه ، لان ائتلافهما في الاصل ، كان حادثا « سياسيا » ، موقتا ، معقلنا على قاعدة مصلحية خالصة ، فاذا انتفت منه المصلحة في ظرف ، أو بلغ أحد طرفيه غرضه ، انهار من تلقاء نفسه ، وطبيعة وجوده .

ويتضح هذا الموقف على نحو أجلى فاجلى ، حين نواجه ما كان

يدور في أذهان الآخرين أيام اسرائيل ـ الحلم ، اذ كانت السياسة الاسرائيلية تتبع ـ في الظاهر ، والظاهر فقط ـ خطى القانون ، وتستصرخ العدالة في الضمير الانساني ، وتحتمي بالمسكنة ، وتفتن أدق الافتنان في تصوير المظالم والاضطهادات التي تعرض لها اليهود على أيدي القياصرة في روسيا ، و « الطغمة النازية » في المانيا ، وحماة الكنيسة في الدول اللاتينية من ايطاليا الى فرنسا الى اسبانيا ، حتى اذا قامت منظمة الامم المتحدة ، في أعقاب عصبة الامم ، وجد الحلم الاسرائيلي سبيله الى الانتقال من حيز الخيال الى الواقع ، وكل ما هو قائم في الاذهان يومئذ ، خارج المنطقة العربية ، ان لضحايا الجور النازي أخيرا ، ان ينالوا حقهم في الراحة ، وان يعيشوا كغيرهم من البشر ، كما يريدون على أرضهم ، ضمن دولة تحميهم من الاضطهاد ، وتدرأ عنهم عوادي الجوع والحرمان والعذاب ! أما الحقيقة ، حقيقة ما يريد اليهود من هذه الدولة ، وما يهدف اليه مؤيدوها من أغراض ، ويدفعهم من حوافز ، فهذا ما لم يفكر فيه أحد ، لكثرة ما كان العالم يعاني من مشكلات وآلام ، وكثرة ما ملأه به اليهود من أصوات استغاثة ، واسترحام ، وتمسك ، ودعوة الى الانصاف . وكانت ، على الاثر ، وفي ظل الامم المتحدة وميثاقها ، اسرائيل ـ الواقع .

وعند هذا المنعطف التاريخي في حياة المنطقة العربية ـ وقد أصبح اسمها « الشرق الاوسط » ـ وجد الناقمون على العرب من كل جنس ولون ، والمصطادون في الماء العكر من كل ملة وبلد ، سبيلا الى النيل من الثقافة العربية ، والخلق العربي ، والازراء بكل من هو عربي وما هو عربي ، مما رسّخ اسرائيل في أحلامها التوسعية ، وجعل « البطر » يخيم على تصرفاتها ، ويحمل مؤيديها في كل مكان ، على استرجاع ما فقدوا من مطامح وآحلام ، خلال الحربين العالميتين : الاولى والثانية .

ساد هذا الجو ـ العبراني ـ خلال الفترة ١٩٤٧ ـ ١٩٥٧ ، فكان يخيل اثناءها لمن يتتبع شؤون السياسة الدولية ان العرب وحدهم هم المسؤولون عن كل ما يجري في أقاصي الارض وأدانيها من ظلامات ، وموبقات ، وعوامل تخلف ، وأسباب انهيار وانحطاط في الحضارة ، وكأن غيرهم من أمم الارض وشعوبها ، غير مسؤول عن شيء أبدا .

ولكن الاشهر الاولى من العام ١٩٥٧ شهدت تبددا تدريجيا في ذلك الجو ، وما أطلّ الاسبوع الاول من شهر آذار (مارس) حتى اضطر بن غوريون ، رئيس وزراء اسرائيل آنذاك ، الى الاعلان في « الكنيست » ، انه لا بد من « الاذعان » لما يريده الرئيس الاميركي ايزنهاور ، آلا وهو الانسحاب من غزة !

كان كل ما حدث ، على صعيد السياسة ، لا القانون ، ان تصدع الائتلاف الذهني بين اليهود والاستعماريين في الجانب الاوروبي منه ، وتبين ان الذين قاموا بحملة السويس استردادا منهم لاحلامهم الخائبة ، أرادوا شيئا لا يريده الجانب الاميركي ، وأدرك الاسرائيليون المقيمون في الشرق ، واسرائيليو الهوى ، في الغرب ، انه يمكن رأب هذا الصدع الخطير في الاستعاضة بالجانب الاميركي عن الجانب الاوروبي لتحقيق ما تبقى من حلم اسرائيل في حيز الخيال ، وطفقت الجهود السياسية تتسرب في هذا الدهليز ، وتتجمع عنده ، حتى خرجت الى النور في ٥ حزيران (يونية) عام ١٩٦٧ ، ونزعت السياسة الاسرائيلية قناعها ، بعد أن انتزعته الاحداث عن وجهها ، فاذا هي تهزأ بالامم المتحدة وميثاقها ، وتضرب عرض الحائط بالقانون ، ولا تأبه لتحذير أو نصيحة ، حتى اذا حلّقت طائرة استطلاع مصرية فوق سيناء المصرية ، تذكرت اسرائيل ان هناك منظمة للامم المتحدة ، ومجلسا للامن ، وأرسلت شكوى عاجلة ان مصر تعتدي على « أمنها » في الوقت نفسه الذي تكون به الطائرات الاسرائيلية التي اغارت على الصرفند في لبنان ـ وهي تبعد نحوا من ستين كيلومترا عن اسرائيل داخل الاراضي اللبنانية ـ قد عادت الى قواعدها ، بعد أن هدّمت بيوت الفلاحين ، وقتلت ما قتلت من الابرياء .

تلك هي السياسة التي انجلت عنها الثقافة العبرانية ، وهذا هو مدى اتباعها خطى القانون ! والعرب وحدهم في العالم ، هم المتخلفون !

ـ ٢ ـ

هذا النوع من السياسة الذي ظهر ، وفشا أمره ، واستشرى خطره في أعقاب الحرب العالمية الثانية يؤكد ، بمدى ما يلقى من تأييد في بعض الاوساط ، ان الذين يمتلكون العلوم الحديثة ، والتقنيات المتقدمة ، والوسائل الفعالة والقوى المدمرة ، من غير سيطرة « خلقية » عليها ، هم أبعد الناس عن الثقافة الحقيقية ، وأقربهم الى التوحش الحيواني الصرف الذي نشهده في سيرة الضباع والذئاب والافاعي والحشرات المفترسة ، ولا تكون علومهم وتقنياتهم ، بعد كل حساب ، سوى امتداد لاظفارهم وبرانتهم وأنيابهم ...

هنا ، نلج الدائرة الثانية من قضية الثقافة المعاصرة ، وهي « التربية » . وهذه أصابها ما أصاب « السياسة » على أيدي العبرانيين وأنصارهم ، من تخلخل واضطراب وفساد ، في كل حقل ومجال ، اذ انكبوا على النواحي الجنسية ، وصرفوا نحوها العقول والاخيلة والارادات ، حتى أصبحت الشغل الشاغل ، والهم الملازم لكل طالب وطالبة ، وكل فتى وفتاة ، وأحاطوها بهالات من الفلسفات ، والاصطلاحات الجديدة ، والاعلانات في الكتب والصحف والافلام والاذاعات ، ثم عمدوا الى استغلالها في تحقيق بعض من أغراضهم السياسية ... والعالم من حولهم « يلهو » و « يلغط » في هذه الشؤون ، و « يثرثر » غير واع لما يراد به ، ولا ملتفت الى النتائج التي يمكن أن يفضي اليها ذلك الاندفاع وراء فرويد ، وبرغسون ، وماركوز ، وغيرهم من دعاة « التحرر الجنسي » ، وأساتذة الثقافة الجنسية !

ولقد كانت صفات الانسان المثالي ، ولا تزال ، معروفة في كيان كل متحضر ، من أقدم العصور الى اليوم ، وهي تتمثل في المزايا الاساسية التي لا يملك أحد انكارها ، آلا وهي : السيطرة على النفس والشعور بالقيمة الذاتية من غير مباهاة ، ووضع الاشياء في مواضعها ، والثبات في مواقف الروع ومواجهة الصعاب ، والاذعان لما لا سبيل الى تجنبه .

هذه المزايا التي توفرت لزمان الرقي في كل أمة ، على تقديرها ، والدعوة اليها ، ونبذ ما يناقضها ، تؤكد ان المراد من « التحرر الجنسي » ، حمل الناس على الاسترسال مع النزوات والشهوات ، والهائهم بالسفاسف والترهات ، ومقاومة كل تطلع يجيش في نفوس الفتيان والفتيات ـ الفتيات خاصة ـ نحو الارقى والاكمل والافضل من شؤون الحياة والمجتمع ، لان من شأن الجنس حين يطغى ، ان يستقطب فعاليات النفس ، ويستحوذ على الخيال ، ويشل النشاط . وتلك هي المؤامرة التي وقعت أوروبا في حبائلها ، وانتقلت الى الشرق في الحقب الاخيرة ، ولا يزال المضي في تنفيذها ساريا ، جاريا ، تحت علم مموه من الفلسفة ، والفن ، والادب الحديث !

هكذا ، وعلى هذا النحو ، ارتطمت ثقافة العصر كلها بأوحال الجنس ، ولم تجد المخرج بعد منها ، ولا وفقت الى تحويل الجمهور عنها ، لان ثمة في عالم « اللامنظور » قوى شريرة ، تعمل خفية وجهرة ، على ابقاء هذا الجو ، والافادة منه . والذين حاولوا التغلب على هذه الحال من مفكري أوروبا وأميركا لم يوفقوا الى التقاط ذلك اللامنظور ، والقاء النور عليه ، وفي مقدمة هؤلاء اثنان : روم لاندو ، وهربرت ماركوز .

جهد الاول في بيان العلاقة بين الجنس والحياة والايمان ، واهتدى الى خطر الخيال في هذه العلاقة ، ووضع يده أو كاد ، على حقيقة الداء ، ولكنه اخفق في القاء القبض على الذين بثوا السم

في فضاء العصر ، ونشروا الوباء ، وكانوا في مسالكهم « المدنية » على صعيد الاجتماع والثقافة ، لا يختلفون ابدا في شيء عن هؤلاء الذين يستخدمون الاسلحة الجرثومية والغازات السامة وقنابل النابالم في ساحات القتال .

يقول روم لاندو : « كلما كانت قدرة انسان ما على التفكير محدودة ـ ولا يمكن أن يكون هناك فكر بغير ترو ورقابة ـ يصبح تحت رحمة أحلام اليقظة ، ويقل كبحه لوثنيات خياله الجنسي ، أو لنزوات حياته الجنسية نفسها . ذلك لان خياله هو الذي يذكي ، في المنزلة الاولى ، حرارة هواه ، بعد وضع المطالب المشروعة لحاجته الجنسية ، على حدة . ومن الخطأ الفادح الاستنتاج ، على أي حال ، ان الخيال الطليق والبلبلة الجنسية ، يقتصران على البدائي ثقافيا ، فان مجرد البساطة لدى هذا ، تستنقذه من الحوافز التي لا تحصى ، والتي يستجيب لها عن طيبة خاطر الجسد الجنسي لدى من هو أكثر منه تحضرا . » (١)

والواقع ان هذه الحوافز الجنسية التي لا تحصى ، وجدت من يذكيها في حياة المتحضرين ، ويمدها بالغذاء حين تهزل ، ويستغلها أخيرا لاغراض سياسية واقتصادية ، وحتى عسكرية في حالات « الصراع » بين القوميات ، والايديولوجيات .

ذلك بان تأثير المثقف ـ أديبا كان او عالما او فنانا او فيلسوفا ـ لا يكون ، ولا يمكن ان يكون الا في مجتمع يتأثر بانتاجه ، ويهتم بما يصدر عنه ، ولا فرق أن يكون هذا الاهتمام سالبا او موجبا ، وحين ينصرف اهتمام المجتمع الى النواحي الجنسية فذلك يعني ان وراء هذا الاهتمام سياسة « غير منظورة » ، وتوجيها خفيا يفعل فعله في تربية الافراد والجماعات على السواء ، وقد وضح بجلاء ـ كما رأيت في تقريرات لاندو ـ ان المتحضر اكثر استجابة للحوافز الجنسية من البدائي ثقافيا .

لا بد اذن من العودة الى مزايا الرجل المثالي ، الى تربية الشاب والفتاة على التحلي بتلك المزايا منذ نعومة أظفارهما ، اذا اريد للحضارة ان تبقى ، او على الاقل ان تتمتع بالعافية ، ولا تنغص وجودها آفات الجنس وعلله وأخطاره .

لكن هربرت ماركوز لا يرى هذا الرأي ، ويحسب ان مثل هذه التربية محكوم عليها باللجوء الى « القمع » ، وقد ثبت لديه ان الحرية اجدى في تطهير النفوس من أدرانها ، وانقاذ المجتمع من الاستغلال والسيطرة ، وان هذه الحرية تفضي مع الزمن الى « حساسية جديدة » ، وهذه كفيلة بمقاومة التفاهات على أنواعها ، من بذخ وتبذير ومنازعات حمقاء ، واقبال على الزينة والرفاهية .

والحقيقة ليست هناك ، فقد أفلتت هي ايضا من فكر ماركوز ، وخياله ، ونظرته الى المستقبل ، فالقمع الذي يقاومه ماركوز ، هو الذي يرد على النفس من خارجها ، وتنظمه القوانين الخاصة التي يسنها لمصالحهم الخاصة ذوو المصالح ، والراغبون في الاستغلال والسيطرة .

كلنا في ذلك الى جانبه ، ولكن ماركوز الذي يزدهيه اللطف والنور ، ويفرح بالجمال حين يعم ويتغلغل في مسالك الافراد والمجتمعات على السواء ، ينسى ان هذه المعاني لا تتحقق ، ولا يعقل ان تتحقق من غير ثقافة جديدة ، تصرف همها ، كل همها ، الى اقناع الفرد ـ والمجتمع بالتالي ـ بحاجته الحيوية الى ممارسة « قمع ذاتي » لنزواته ، وشهواته ، وشطحات خياله ، من غير ان يغرق في لجج اليأس والعدمية ، وبتيه في مجاهل الكآبة وادغال الشؤم والنقمة على الوجود ، والسعي في سبل العنف والتخريب .

(١) انظر :
Sex , Life And Faith , by Rom Landau , Faber and Faber Limited , London , 1945) P . 21

ولا ندحة لحضارة انسانية تريد ان تعيش بعد اليوم ، عن تجديد ثقافتها من هذه الزاوية ، زاوية القمع الذاتي ، للتمكن من القضاء في أول منزلة ، على العبوديات النفسية والمطامح العدوانية ، والاحلام التوسعية .

وما الحديث عن الحرية الجنسية ، وطغيان الغرائز على العقول ، وتحكمها بالانسان في كل مكان وزمان ، الا أحد معطيات الثقافة العبرانية العتيقة التي ما انفكت الانسانية تحاربها ، منذ فتح لها السيد المسيح أبواب محاربتها على جميع الجبهات ، الى يومنا هذا .

ـ ٣ ـ

... واذا كان انقاذ الحضارة الحقيقية لا المزيفة ، يتوقف كما رأينا ، على الجد في سن القوانين العادلة وتطبيقها ـ لان ثمة قوانين جائرة كتلك التي تسنها اسرائيل داخلها ـ ثم على تربية تزود الانسان المعاصر بمزايا جسدية وعقلية وخلقية ، تمكنه من مقاومة العبوديات في نفسه ومجتمعه ، فلا بد ان تلقى هذه السياسة الجديدة الهادفة الى العدالة وطنيا ودوليا ، معارضة من جانب هؤلاء الذين تقوم حياتهم على الجور ، والتمييزات من كل نوع ، ومن شأن هذه المعارضة أن تؤدي بدورها الى قطع الطريق على التربية المنشودة ، اذ ينشأ عند ذاك ضرب من « الصراع » السياسي ، والاعلامي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، تضيع فيه الحقائق ، ويضل معه الجمهور ، وجمهور المثقفين في كل مجتمع ، على الاخص .

هنا ينفتح المجال امام اعادة النظر في هذا الواقع ، واقع الصراع ، الذي جعل ماركس « يحلم » في أن يؤدي الى وقف « استغلال الانسان للانسان » عند نهاية المطاف ، وقد ركّزه بين طبقات المجتمع ، على أساس اقتصادي صرف .

ولكن البلاء بهذا الصراع أعظم مما تصور ماركس ، وأعمق ، لانه يقوم ، كما تبين من مجرى التاريخ المعاصر ، بين ثقافة وثقافة ، أي بين سياسة وسياسة ، وتربية وتربية ، ووراء كل ثقافة عوامل تاريخية وجغرافية ، كما ان امام كل ثقافة أهدافا تسعى اليها ، وتؤمن بأولويتها .

صحيح ان ما يفرّق الناس ويحدث الشقاق بينهم ليست هي الافكار ، وانما هي المصالح ، والاهواء ، والطباع ، والاذواق ، ولكن عوامل التفرقة هذه قابلة جملة وتفصيلا للتغيير والتبديل ، وللعقل في تبديلها وتغييرها اثر لا معنى لانكاره ، وقد وضحت في هذا العصر خاصة ، قيمة العلم ، وفائدة الادب ، وجدوى الفن ، رغم ان العلم خسر على يد السياسة العبرانية فعاليته التربوية ، والادب خسر في اطار الحياة المادية الراهنة روحانيته الاصيلة ، والفن خسر الكثير من جماليته بفعل الاباحية ، والحرية المصطنعة اللامسؤولة .

هذا معناه ، في التحليل الاخير ، انه لا غنى عن درس كل صراع ، مهما كانت صفته ، على حدة ، ورده الى أصوله الثقافية ، والحكم عليه أخيرا من خلال الغايات والاهداف الحقيقية التي يسعى اليها كل طرف من أطراف الصراع ، وعند ذاك وحده ، يتبين وجه الحق ، ويزول كل حجاب يستتر الباطل وراءه .

أقول ذلك ، وأمامي الآن كتاب وضعه جوزيف فاينبرغ ، عنوانه « الحقيقة عن الصراع الاسرائيلي ـ العربي » (٢) ، حشاه مؤلفه بسبعين صورة عن قصاصات جرائد ، وعناوين كتب ، اعتبرها « وثائق » تدين العرب ، والسوفيات ، وتبرىء ساحة الاسرائيليين من كل خطأ ، او محاولة خطأ ، او نية خطأ ، دون ان يذكر شيئا هذا الباحث « الموضوعي » المستند الى الوثائق ـ وكلها دعايات ، والاعيب اعلامية ، ومناورات صحفية ـ عن وعد بلفور ، والغارات على : دير ياسين ، والسموع ، وقرى الجنوب اللبناني ، ومذبحة

(٢) انظر :
Joseph Veinberg , La vérité sur le conflit israelo arabe (C.E.F. 1970)

كفر قاسم ، وتهجير السكان العرب في غزة ونابلس وغيرهما ... ولكن هذه وقائع ، وليست « وثائق » تستحق ان نذكر الى جانب ما قالته « الاهرام » و « الليموند »

و « الفيغارو » ، الخ ...

ومع ذلك ، يزعم عنوان الكتاب انه « الحقيقة عن ... » .

الحقيقة انه ليس هنالك « نزاع اسرائيلي ـ عربي » ، ولا كان العرب يوما من الايام ينازعـــون الاسرائيليين او يضطهدونهم او يعتبرونهم اندادا لهم وأخصاما . ولكن الاسرائيليين هم الذين كانوا ، ولا يزالون ، يدخلون في نزاع مع الروس ، والالمان ، والطليان ، والفرنسيين ، والاسبانيين ، وأخيرا ... مع العرب (انظر مـــادة « صهيونية » في الموسوعة البريطانية الكبرى)

والحقيقة انه يمكن الحديث ، على نحو موضوعي خالص ، عن « نزاع بريطاني ـ عربي » حول استقلال فلسطين عهد الانتـداب ، كما يمكن الحديث في هذه الايام ، عن « نزاع اميركي ـ عربي » حول حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ، واسترداد وطنهم وأراضيهم ، ولا يصح بحال جعل الاسرائيليين طرفا في النزاع ، لان هؤلاء كانوا ولا يزالون ، « طفيليين » على المعارك التي خاضها الاستعمار فـــي هذه المنطقة ، فكانوا ينتصرون بانتصاره ، وينهزمون بانهزامـــه . والاختلاف بين اليهود والعرب ، لا يفترق أساسا عن كل اختـلاف يهودي مع الشعوب الاخرى التي كانوا ينازعونها من تلقاء أنفسهم ، على مدى العصور ، وفي مختلف البلدان ، أي انه « خلاف ثقافي » أولا وقبل كل شيء ، وبالتالي خـــلاف في الطباع ، والاذواق ، والميول ، وأخيرا في الاهداف والغايات .

ذلك يفيد انه كان على جوزيف فاينبرغ ، لو كان يتحرى الحقيقة فيما يكتب ، ان يتحدث عن « النزاع الاسرائيلي ـ الانساني » لان طباع الاسرائيليين ، كأهدافهم وغاياتهم ، تتنافى والتطلعات الانسانية السليمة الى حياة يسودها العدل ، والامن ، والرخاء ، والسلام ، وتنأى عن الطفيلية ، والتمييز العنصري والديني ، والاعتداء عـلى الآخرين ، وتشويه وجوههم بقنابل النابالم ، وتأليب الاميركان على السوفيات ، والاكراد على الاتراك ، وما أشبه من دسائس على كـل الشعوب ، وبين جميع الشعوب ، ليثبتوا في النهاية ، انهم « شعب الله المختار » ! فهل يستطيع فاينبرغ أن ينكر هذا الاساس فـي سياسة اسرائيل وتربية أبنائها ؟ هل يملك وثيقة ردّ عن الاسرائيليين تهمة التواطؤ مع كل أجنبي عن المنطقة ، وتهمة الاعداد الدائم لحرب تخوضها اسرائيل ضد الانسانية كلها ، كي تنفذ منها الى تحقيـــق حلمها في توسيع دولتها من النيل الى الفرات ؟

الحقيقة أخيرا هي ان الاسرائيلي عاجز ـ وان بدا منتصرا ـ عن فهم العالم الذي يعيش فيه ، وهذا العجز ناشىء عن التربيـــة التي تكوّن عقله على يدها ، وسياسة النفاق التي يسلكها حيـــن يتحدث عن السلام ، أي عن ثقافتـه بتعبير آخر ، وسائر ما ينبثق عنها في كل فرع واتجاه .

اما النجاح العسكري الذي أصابته اسرائيل في الحرب الاخيرة التي شنتها للتوسع واغتصاب الاراضي من أيدي اصحابها الشرعيين ، فانه مقتصر على صفته العسكرية ، ولا يعني شيئا آخر ، فهو يشبه النجاح الذي أصابه هتلر في مستهل أمره ، كما انه يكشف عـن غور الاخفاق الثقافي ، وحقيقة الانهزامية السياسية الكامنة فـي أعماق الكيان الاسرائيلي ، ولا يحتاج ذلك النجاح ، ليظهر عـلى حقيقته ، الا ان يعرف العالم ارتباطه العضوي بالاستعمار ، وأهدافه العنصرية والتوسعية ، تماما كما حدث لهتلر وأعوانه ، ومناصريه في الخفـاء .

وكل ما في الجو الثقافي الآخذ في الصحو والنقاء ، يبشر على نحو ملموس ، انه حين يرتفع المستوى العقلي في اميركا الشمالية ، وتمضي المنظمات الدولية حقا وصدقا ، في تحقيق أغراضها ، وتطبيق مبادئها ، ومنظمة الاونسكو منها خاصة ، تتوارى اسرائيل ، وتذوب ، ولا يبقى منها سوى خبر من أخبار التاريخ ، ودليل ساطع يضاف الى غيره من الادلة ، على ان الاغتصاب وانتهاك الحقوق يمكن ان «ينجح» لفترة قصيرة ، ويستحيل أن يدوم .

ـ ٤ ـ

قد يرى بعضهم من ذوي العقول العبرانية في اوروبا واميركا ، وحتى في ديار العرب ، او ممن تأثروا ، على نحو أو آخر ، بدعايات اسرائيل او بانتصاراتها المزعومة ، اننا نحاول هنا أن نبدد الغيـوم التي أربدت بها سماء الحياة العربيـــة في الآونة الاخيرة ، أو أن نبعث الامل والتفاؤل ، صدّا لتيار التشاؤم الذي أحدثته التمزقات العربية ، استنادا منا الى النقمة التي تملأ صدور العرب عـــلى اسرائيل وأعوانها ، أو تفجيرا للاحقاد التي تراكمت منذ اكثر مـــن نصف قرن على الذين زودوا اسرائيل ، ولا يزالون يزودونها ، بوسائل الفطرسة والعدوان ، والتصلب في مواقف العدوان والفطرسة .

وواقع الامر اننا نستند في كل ما بيّناه وأوضحناه على الجبهة الثقافية ، الى موقف اسرائيل نفسها في الخارج والداخل ، على السواء ، لا الى موقفها مع العرب وحدهم .

ذلك بأن اسرائيل تناصر العدوان والاغتصاب في كل مكـان ، وتحارب حركات التحرر في كل مكان ، ولا تخرج كلمات الســـلم ، والعدالة ، والحق ، من أفواه أبنائها وانصارها الا مشوبة بالحذر ، مغلفة بغلاف كثيف من الانانية العميقة التي تريد الاستئثار حتـــى بمعنويات تعمل في الحقيقة على تهديمها ، ولا تؤمن بها حتى لنفسها .

وأظهر ما يظهر ذلك في تركيب مجتمعها الداخلي ، فهي لا تعرف حتى الآن من هو الاسرائيلي ، ولا من هو اليهودي الذي قامت مـــن أجله ، كما ينجلي بوضوح يبهر الابصار في اضطراب قضائها ومفكريها وزعمائها عند هذه القضية ، وهذا ما بسطه امنون روبنشتاين ، عميد كلية الحقوق في جامعة تل ابيب (٣) ، اذ بيّن ان « مفهوم الهويـة اليهودية كله ، بمعناه التقليدي ، انما يقوم على أساس من الميثاق (بريت) المعقود بين الله والشعب اليهودي . وهذا الميثاق الابدي (بريت اولام) يفسر الهوية المستمرة التي تربط الشعب اليهـودي اليوم باسرائيليي الميثاق ، وهي الصلة الدائمة التي ترتكز عليهـــا فكرة العودة الى صهيون ، برمتها » .

هذه العقيدة وحدها تكشف بما لا يدع مجالا لاي شك ، ان الحق في ذهن الاسرائيلي حقان : الاول داخلي ، والثاني خارجي ، وللاول سيادة على الثاني ، فلا يمكن ان يكون لاي أجنبي عن اسرائيل ، أي حق في الحياة او في المواطنة ، اذا لم يكن في الاصل من وجوده ، أحد أطراف الميثاق الابدي ، مما يشير الى عنصرية تهون معهـــا عنصرية هتلر .

وما يقال عن فكرة « الحق » في حياة اسرائيل وعقول ابنائها ، يقال بحذافيره عن فكرة « السلام » . فهناك سلامان : الخارجي وهو الحرب ، وداخلي وهو الذي يؤمن لاسرائيل السيادة على العالم ، بمن فيه من اميركان وسوفيات وصينيين ، فاذا تحدث الاسرائيلي عن السلام في الخارج ، فهم مواطنوه في الداخل انـه يعني الحرب ، ولكن الامر « سرّ » بين اطراف الميثاق الابدي !

تلك هي الثقافة العبرانية ... اترانا في حاجة بعد الى الشرح والايضاح ؟! وهل للعرب ان يعرفوا واجبهم ، ويؤدوه ، ويلتزموا به على هذا الصعيد ، صعيد الثقافة ، في مجالات الاعلام ، والتربية ، والتعليم ، والسياسة ، والادب ، والصحافة ؟!

عبد اللطيف شراره

---

(٣) انظر

Who's a Jew , and Other woes , by AMmnon Rubirstein Encounter , March 1971) P. 84 .